امرأتان وعاشقة

• لنا عبد الرحمن*

«لا يُمْكن الإنسانَ أبدًا أن يدرك ما عليه أن يفعل، لأنّه لا يملك إلاّ حياةً واحدةً لا يسعه مقارنتُها بحيوات سابقة ولا إصلاحُها في حيوات لاحقة. كل شيء نعيشه دفعة واحدة...» ـ ميلان كونديرا

المرأة ١

جاء إليها. هي تعرف ما يريد هذه الليلة. هَمَسَ باسم الدلع الذي اعتاد مناداتَها به كلّما زحفتْ غرائزُه.

وضع يديْه على جسدها. حاول معانقتها. كانت باردةً جدّاً، لا تحسّ أيَّ رغبة. تحسّ أنّها وعاءُ تفريغٍ لا أكثر.

سألتْه: ماذا تريد؟

أجاب بثقة بشعة: أريدكِ.

ابتسمتْ بسخرية، ثم خلعتْ ملابسها وتمدّدتْ عاريةً بقربه. لم يتكلّم. سَقَطَ بثقل جسده فوقها. لم تستغرق العمليَّةُ غيرَ دقائق معدودة، أحسَّت بعدها بالقرف. قامت إلى الحمّام سريعًا. اغتسلتْ. انهمرت الدموعُ وسقطتْ في روحها. حاولت أن لا تبكي، أن لا تحزن، أن لا تتمنّى. حين خرجتْ من الحمام، كان يجلس يشاهد مسلسلاً فكاهيّاً ويأكل حبّاتِ الفستق.

ـ هل تُعدّين العشاء؟

عاد لمتابعة المسلسل. نظر إليها من جديد. لاحظ شعرَها المبلّل. قال:

ـ لماذا تُسْرِعين بالاستحمام؟ ربما أحتاجك مرّةً أخرى. أريد طفلاً، ألا تفهمين؟

رمقته بنظرة ساخرة. واصل حديثه:

ـ لِمَ أنتِ هنا إنْ كنتِ لا ترغبين في إنجاب الأطفال؟

أجابت بلامبالاة:

ـ ليس الآن.

قال باستفزاز محاولاً إثارتها:

ـ إذن سأتزوّج بأخرى، وأُحضرها لتعيش معكِ في هذا البيت، وستنجب الأطفالَ لي، وأنتِ تموتين قهرًا.

صرختْ في وجهه:

ـ وهل تظنّني سأرضى بهذه الحياة؟

ـ سأجبركِ على الرضوخ.

ـ سأهرب منكَ.

ـ سأُحضركِ بالقوّة. أنسيتِ أنّ القانون لا يسامح الزوجة الفارّة؟

ركض ذهنُها إلى أشهر سابقة حين لجأتْ إلى المحكمة. تذكّرتْ أسئلةَ القاضي:

ـ هل يغطّي مصاريفَكِ ومصاريفَ المنزل؟

ـ نعم. لكنّه يضربني و... و... و...

ـ لكنْ لا أرى على وجهكِ أيَّ آثار للضرب.

---

* ـ كاتبة من لبنان.

ـ إنَّه يحتقرني، ويعذِّبني، ويسيء إلى إنسانيَّتي.

ـ هيّا عودي مع زوجك إلى منزلكما، واقنعي بحياتكِ يا امرأة.

ثم أشار إلى زوجها، وهو يبتسم، أن يأخذها معه. بعد هذه الحادثة لم تفكِّر في اللُّجوء إلى المحكمة مرّةً أخرى.

ـ لا تقفي هكذا مثلَ المومياء. جهِّزي لي الطعام.

طافت بمخيّلتها صورةُ أخيها البعيد الذي هاجر وتركها مع هذا الزوج؛ وصورةُ أقاربها الذين عمل زوجُها على بتر علاقتها بهم من أجل إبقائها في دائرة مجتمعه فقط. ثم تأكَّدتْ من عجزها حين استعرضتْ في مخيّلتها صورَ صديقاتها اللواتي تابعن دراستَهنّ الجامعيَّة، وحصلن على وظائف مرموقة. أما هي فقد اكتفت بدراسة العام الجامعيّ الأوّل من قسم علم النفس، إذ منعها من الدراسة لأنَّها يجب أن تهتمّ بالبيت، وأن تراعي شؤونه ومتطلّباته. ومنذ ذلك الحين هجرت الكتبَ، ودخلتْ عالمَ المطبخ والأطعمة وأدوات التنظيف.

نظرتْ إليه، إلى أوداجه المنتفخة من الغضب، إلى أذنيْه الحمراويْن، إلى عينيه اللتين تَقْدحان شررًا. جمعتْ صحونَ الفاكهة والفستق الموضوعة أمامه ثم اتّجهتْ بها إلى المطبخ لإعداد العشاء.

المرأة ٢

غدًا موعدُ أشواقه إليها، وأحلامِها به. لكن عليها أن لا تلقاه، أن لا تنصتَ لسمفونيَّة العشق التي تنساب بينهما. لِمَ هي منجذبةٌ إليه كلَّ هذا الانجذاب السحريّ؟ ألأنَّ لقاءاتهما دائمًا في جدول المستحيل؟ أمْ لأنَّ قصَّتهما منذ فجرها موشومة بالقَدَر؟

لا. إنَّها رحلة وجع آخر. وماذا تنتظر من الوجع غير الوجع؟

وحدَه اخترق حزنَها، وحدتَها، قلمَها، تلك العناصرَ التي منها جُبِلَتْ. أَشْعَرَها بالحياة، وبأنَّها تستطيع أن تحبَّ من جديد.

همستْ روحُها: إنَّه قدرُكِ.

ـ لكنْ أنا، لن أكون له. سأفعل بنفسي شرّاً إنْ بقيتُ معه.

قال لها مرّةً:

ـ لِمَ أحببتُكِ أنت من سائر نساء الأرض؟ ألأنَّ دربَك هاوية؟

أجابته بتردُّد: اِنسَ الغد. نحن اليوم معًا.

قال: عليّ أن أنسى أنَّنا لن نحيا يومًا معًا، ولن تكون بيننا أحلامٌ مشتركة أو تفاهاتٌ مشتركة.

كانت تَحْقن روحَها بمخدِّر، لتمنعها من الإحساس بقلق الغد. لكنّ حوار ذلك اليوم أيقظ كلَّ ما في الداخل من عوالم، وأشخاصٍ، وعوائقَ تَحُول بينهما. من أين لهما القوّة على التخطّي والعبور؟

صرختْ أمام روحها: نحن بلا أحلام. هذا الحب سيشيخ، ويموت قبل الأوان. لن يرى الشمس. سيضعف، ويسقط كسيحًا تحت أرجل الوقت. فليحيى شاباً في قفص الصدر خيرٌ من أن يموتَ مستسلِمًا للزمن.

كانت تفكِّر في بؤرة اللامعقول التي سقطتْ فيها، وتُمْسك بسمّاعة الهاتف لتصل إليها نبراتُ صوته قائلاً: أشتاقكِ.

صمتتْ ثوانيَ لتختزن كلمتَه في صدرها. أحسَّت أنَّ شموسًا من الأحلام تُشْرق في الروح، وجداولَ رقراقةً تروي صحراءَ القلب.

همستْ: وأنا أيضًا اشتقتُ إليك.

قال: أريد أن أراكِ.

أجابت: أنا أيضًا.

قال: غدًا. اكتبي هذا العنوان. وسنلتقي في اللّحظة التي تهاتفينني فيها.

العاشقة

أيُّ هاويةِ جنونٍ دفعتْها إلى القدوم؟

تأمّلتِ الغرفةَ الواسعةَ التي تجمعهما. نظرتْ إليه، إلى ملامحه السمراء، إلى جسده العملاق. لِمَ هي مأسورةٌ إليه بهذا الشكل، وكأنّها طفلةٌ دخلتْ حديقة الألعاب؟ كان يضع الأطباق على الطاولة حين قال لها، وهو يتأمّلها بدفء:

ـ اخلعي معطفَكِ وحذاءَكِ. الغرفة مكيَّفة.

لا، لن تخلع حذاءها. يجب أن تظل متأهبةً للمغادرة في أيّ لحظة. فهي لم تعرفه جيّدًا بعد. هذا لقاؤها الأوّل به وحدهما منفردَيْن. أتكون غبيَّة وساذجةً لأنّها تبعتْ أوامر القلب وحضرتْ للقائه؟

فيما هو يتحرّك في الغرفة، كانت تفكّر بمحاضرات علم النفس التي تعلّمتْها. ماذا لو كان ساديّاً يستلذّ بتعذيب الآخرين؟ كيف استدرجها إلى هنا، ومَنْ يستطيع لومَه، وقد أتت بإرادتها؟

طافت كلُّ تلك الأفكار في مخيّلتها، فيما هو يرفع الستائرَ ويعلّق على الطائرة التي تمرّ في السماء، واصفًا شرفتَه بأنّها ممرّ جويّ للطائرات.

عبثًا تحاول مقاومته. منذ لقائهما الأوّل عرفتْ أنّ هذا الرجل سيشكّل منعطفًا خطيرًا يغيّر حياتها. بعد قبلتهما الأولى أدركتْ تمامًا أنّها تحبّه بعنف مجنون ومتهوّر. أنّتْ روحُها بألمٍ حزنًا على حب مرصود للفراق.

ماذا لو كانت عنده مجردَ محطّة؟ ماذا لو كان يرى فيها جسدًا أثاره تمرُّدُهُ ورغب في الحصول عليه؟ لكنْ لِمَ قال إنّه يحبّها؟ لِمَ قال إنّه يشعر وكأنّه التقاها منذ أعوام طويلة؟ كيف قادها المجهولُ إليه؟ إلى رائحة رجولته التي تتنشّق فيها عبقَ الهال وسخونةَ الغابات الاستوائيّة الحارّة؟

حين أطْلق حمّالةَ نهديْها، بَدَوا أشبهَ بيمامتيْن أُطلقتا من الأسر متوثّبتيْن بعنقيْن ثائريْن. شدّها بعنف. غمرها بدفء. ثم مرّ بيده على عمودها الفقريّ، كما لو أنّه يَعْزف آلة موسيقيّة. تأوّهتْ بخفوت. داخِلُها نديٌّ: طراوةٌ لم تعرفها من قبل. فاقت اللّحظةُ التي ولجها فيها أيَّ لحظةِ نشوةٍ أخرى. يتمازج داخلَها خليطٌ من الرغبة والخوف. أدركتْ أنّها خُلقتْ من أجل اللّحظة ولهذا الرجل. أمواج أمواج: ترتفع بها إلى أعلى حيث جنونُ العاصفة. تسبح، تغوص كعروس بحر تَنْقل بفمها اللؤلؤَ. ترتعش في حركات عنيفة قبل أن تَنْخفضَ الأمواج وتهدأ العاصفةُ وتصلَ إلى شاطئ الحلم، لتغفوَ بسكون على مرافئ صدره.

أمِنَ المعقول أنّ لحظاتهما معًا حملتْ كلَّ هذا الصخب، كلَّ هذه الحياة؟

معه لم تعد تخشى الضعفَ أو التخاذل. معه تمنح دون أن تدري، وتأخذ دون أن تراقب. وحين سالت أمطارُهُ على صحراء جسدها رغبتْ أن تخترق جوانيَّتَها أكثر، أن تفجّر كلَّ ما في داخلها من ينابيع.

كلمة «خواء» هي أفضلُ مفردةٍ تصف رحيلَه عنها. والامتلاءُ بجنّات جسده، وصعودُ سلالمَ سماويّةٍ، هما أفضلُ ما يعبّر عن رحيلها من مدنِ حُبّه.

لا.. لا.. ربما هي امرأةٌ ككلّ النساء، وهو رجل ككلّ الرجال. لكنّهما تحابّا حبّاً حقيقيّاً.

بيروت